

التغير الثقافي وأثره على المظاهر الثقافية للمدينة

د. حمادي محمد¹

الملخص :

إذا كان مفهوم الثقافة يشير لكل السلوكيات ونمط المعيشة والتفكير واستخدام اللغة والنسق الرمزي والحركات والإشارات في الحياة الاجتماعية ، أي المكونات والعناصر المادية واللامادية التي يستعين بها أفراد المجتمع في حياتهم اليومية ، فان ثقافة المدينة، هي كل ما يتميز به المجال الحضري للمدينة بكل تعقيداته ومكوناته الاقتصادية والعمرانية والاجتماعية والثقافية والسياسية، من تفاعلات اجتماعية وأنماط سلوكية نابعة من البيئة الحضرية للثقافية المحلية . من هنا ، يسهم التغير الاجتماعي والثقافي من خلال العوامل الداخلية والخارجية، في إحداث تغير عميق في أساليب الاتصال والتخاطب والعادات الاستهلاكية ونمط التفكير بفعل الحركة والديناميكية الاجتماعية التي عرفتها المجتمعات الإنسانية الحديثة، ومنها المجتمع الجزائري .

الكلمات المفتاحية : الثقافة- التغير الثقافي - الفضاء الحضري - الانتشار الثقافي-المثاقفة- العناصر الثقافية - الديناميكية الاجتماعية.

1 مقدمة :

عرفت المدن الجزائرية كغيرها من مدن العالم تغيرا اجتماعيا وثقافيا وتحولات في المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية والعمرانية ، انعكست كلها على هيكله البنية الاجتماعية وعلى نمط التفكير و مختلف السلوكيات، مما تولدت عنها أشكال وأساليب وعناصر ومكونات ثقافية جديدة طبعت السلوك اليومي للفرد الجزائري.

كما عرفت المدن الكبرى تطورا هائلا وسريعا في عدد السكان واكبه كذلك توسعا عمرانيا كبيرا قد تطلب بناء الكثير من الهياكل التحتية والمنشات والمراكز ذات الوظائف المختلفة، استجابة لحاجات ومتطلبات الشرائح المختلفة من المجتمع.

فالمدن الكبرى قد نشأت في الحضارات القديمة وفي أوروبا خلال القرون الماضية ،غير أن قيام المدن الضخمة ونموها واتساعها لم يبدأ إلا في النصف الثاني من القرن العشرين. ويتزايد سكان المدن بأسرع مما يتزايد حجم السكان الإجمالي .ففي عام 1975 كان 39 % من سكان العالم يقطنون المدن والمراكز الحضرية ، و ارتفعت هذه النسبة إلى 50% عام 2000 ، ويتوقع أن تصل إلى 63% عام 2025.⁽²⁾

(1) جامعة عبد الحميد بن باديس بمستغانم، قسم علم الاجتماع .

(2) انتوني غدنر : علم الاجتماع ، ترجمة فايز الصياغ ، المنظمة العربية للترجمة ، ط1 ، بيروت لبنان ، 2005 ، ص597

وكان لنمو المدن الحديثة اثر هائل ، لا على عادات الناس وأنماط سلوكهم فحسب ، بل على أنماط التفكير والقيم .ومن اللافت للنظر أن الانتشار الهائل للمدن ارتبط لدى الكثير من الباحثين الاجتماعيين بمظاهر التفاوت واللامساواة الاجتماعية وشيوع الفقر والانحراف والجريمة .⁽³⁾

من هنا يمكن طرح التساؤل التالي : كيف تسهم عناصر التغير الخارجية والداخلية في التأثير على الخصوصية الثقافية لفضاء المدينة؟ وخلق اساليب تعبيرية وأنماط استهلاكية جديدة؟
ولذلك ، فانه من الأهمية بمكان التوقف عند المفاهيم الأساسية التي وظفت في هذا المقال ولها ارتباط في تحليل الظاهرة الحضرية:

1) المدينة :

تتميز المدينة في مظهرها العمراني المألوف عن القرية سواء من ناحية شكلها الخارجي أو وظائفها أو نموها أو تطورها .

ومن الصعب وضع تعريف محدد لمصطلح المدينة ، ذلك انها ظاهرة معقدة تولدت عن تفاعل عدد من العوامل المتشابكة ، ومن ثم اختلف العلماء في تعريفهم لها ، وظهرت تعريفات مختلفة حسب وجهة نظر كل عالم .⁽⁴⁾
فمن العلماء من تصور المدينة امتدادا للقرية على اعتبار ان هناك تدرجا مستمرا بين ما هو ريفي وما هو حضري .

ومنهم من عرف المدينة في ضوء عدد السكان ، باعتبار ان هناك حد أدنى للحجم السكاني الذي تعرف المدينة على اساسه .⁽⁵⁾

كما ركز البعض الاخر على البعد التاريخي ، من خلال المراحل والسيورة التاريخية التي مرت بها المدينة ، بحيث عرفت بذلك تغيرات وتحويلات في المجالات العمرانية والثقافية والاجتماعية .

وفي هذا الصدد ، تناول ممفورد المدينة باعتبارها حقيقة تراكمية في الزمان والمكان . ومن هذا المنطلق فان تاريخها يمكن استقراؤه من خلال مجموعة من التراكمات التاريخية ، و في تطورها من حيث الزمان تاخذ شكلا تتابعيا من حيث الوجوه التي مرت بها ، وهي كنتيجة لذلك تتابع الزمني تعد تراكمية في المكان .⁽⁶⁾

2) الثقافة :

تعتبر ظاهرة كلية تشكل كل مظاهر الحياة المتعلقة بالنشاط العقلي للإنسان وما ينتجه من معارف وعلوم.

⁽³⁾ المرجع نفسه ، ص 597

⁽⁴⁾ حسن عبد الحميد رشوان :مشكلات المدينة - دراسة في علم الاجتماع الحضري ، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ، 2005 ، ص 5 .

⁽⁵⁾ المرجع نفسه ، ص 5 .

⁽⁶⁾ المرجع نفسه ، ص 5 .

كما تعرف على أنها المظاهر المادية المتجلية فيما ينتجه من خيارات بهدف إشباع حاجاته سواء بيولوجية أو اجتماعية . ومن ثم ، فالثقافة تشمل كل ما يتعلق بالحياة الاجتماعية للإنسان من عادات وتقاليد ، وكل ما يدخل في تحديد سلوكه ويساعد على التكيف مع المحيط. (7)

فإذا كان العالم الانثروبولوجي البريطاني ا.ب. تايلر E.B.Tylor قد أرسى مبادئ الثقافة الشاملة *conception universelle de la culture* ، من خلال تعريفه الانتوغرافي الوصفي على أنها " ذلك الكل المركب الذي يشمل على المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والتقاليد وكل القدرات والعادات المكتسبة من طرف الإنسان بكونه فردا في المجتمع " (8)، فان العالم الأمريكي فرانس بواز F.Boas ، فمن جهته يركز على الخصوصية الثقافية، أي أن الاختلاف الجوهرى ما بين الجماعات البشرية هو ذو طابع ثقافي بالدرجة الأولى وليس اختلافا عرقيا. (9)

كما نجد العاملة روث بندكت Ruth Benedict التابعة كذلك للمدرسة الأمريكية للانثروبولوجيا الثقافية تدافع عن مبدأ الخصوصية الثقافية ، من خلال المصطلح الذي اشتهرت به وهو " النمط أو النموذج الثقافي " *pattern of culture*. (10)

فالثقافة لها خصوصيات تتميز بها : أنها ذات طابع إنساني بالدرجة الأولى ، كما أنها مكتسبة وانتقالية وانتقائية و مكوناتها قابلة للتغير عبر الأجيال المتلاحقة وهذا ما يعطيها الطابع الديناميكي الذي يحركها.

-عناصر الثقافة وسماتها:

نقصد بالعناصر والسمات تلك المكونات الأولية والأساسية للثقافة ، والتي يمكن التمييز بينها لغرض الدراسة والملاحظة فقط ، فهي مكونات مادية او مكونات فكرية. (11)

فالعناصر المادية تتمثل في كل ما أنتجه الإنسان مما يشبع حاجاته من الناحية المادية كالمباني والطرق والمساحات الخضراء أو الجوانب التربوية كالمدارس والجامعات والمعاهد... أما العناصر اللامادية فهي تشمل كل ما يتعلق بالمعارف والعلوم والأفكار والقيم والنظريات...

ومن ثم ، يمكن دراسة الثقافة من خلال ملاحظة هذه العناصر وكيفية تفاعلها وكيف يؤثر بعضها على بعض وبالتالي تحديد التنظيم الاجتماعي الذي ينتج عن هذا التفاعل . (12) وأما الثقافة الفرعية فهي إحدى مكونات الثقافة الشاملة لمجتمع ما ، و تتكون من العادات والتقاليد والاحتفالات والأعياد ومختلف المناسبات وما

(7) الفضيل العيرج: الثقافة الحضرية ومشاكل الاندماج السوسيو ثقافي ، مطبعة Rabat net ، المغرب ، 2009، ص12.

(8) Denys Cuhe : *Notion de culture dans les sciences sociales* ,Editions La Découverte ,Paris ,1996,p.16

(9) Ibid ,p.19.

(10) Ibid ,p.36.

(11) الفضيل العيرج: الثقافة الحضرية ومشاكل الاندماج السوسيو ثقافي ، ص12.

(12) المرجع نفسه ، ص 13

تصاحبها من ألبسة وأزياء تقليدية وأهازيج ورقصات التي تتميز بها كل منطقة من المناطق المختلفة داخل نفس المجتمع.

3) الثقافة الحضرية للمدينة:

إذا كانت المدينة، كما يعرفها Y.Grafmeyer (مختص في علم الاجتماع الحضري) على أنها عبارة عن إقليم ومجموعة من السكان، وإطار مادي، فإنه بالإمكان إرجاع المدينة إلى نظامين من الواقع: مدينة استاتيكية ثابتة، مقيدة بالأطر المادية؛ والأخرى، مدينة ديناميكية، مكونة من سكان وأفراد تربطهم علاقات اجتماعية.⁽¹³⁾، فإن الثقافة الحضرية هي ذلك الشكل من الثقافة السائد في المجتمع الحضري للمدينة، مما يميزها عن الثقافة الريفية.

كما تتمثل في مجموع الممارسات الثقافية والفنية والرياضية المتواجدة داخل الفضاء الحضري.⁽¹⁴⁾

3-1- مقاييس الثقافة الحضرية: ⁽¹⁵⁾

ما هي هذه المقاييس التي يمكن الاستناد عليها لتحديد مفهوم الثقافة الحضرية أو جماعة حضرية أو مجتمع حضري؟

- المقياس الإحصائي:

هناك اختلافات كبيرة ما بين الباحثين والمراكز التي تتخذ عتبة إحصائية كدلالة على مركز حضري أو ما هو حضري، بحيث تختلف العتبات بكيفية كبيرة جدا، فنفس الكميات والعدد تأخذ معان مختلفة للبيئات الاجتماعية والإنتاجية التي تحدد تنظيم المجال، فإذا كان الإحصاء الأمريكي قد حدد عتبة 2500 نسمة كمعيار لمجموعة حضرية، فإن الندوة الأوروبية اتخذت عددا يفوق 10000 نسمة كمقياس اعتمادا على توزيع السكان النشطين في مختلف القطاعات.⁽¹⁶⁾

أي أن هذا المقياس يعتمد على الجانب الديمغرافي والكثافة السكانية من أجل تحديد المجال الحضري.

-مقياس الزمان والمكان:

يستند كثير من علماء الاجتماع على عنصر الزمان والمكان للفرقة بين ما هو حضري وما هو قروي، فإذا أخذنا مثلا مفهوم المكان، نلاحظ أنه في البادية لا حدود له فهو مكان عام وغير شخصي، بينما يكتسي المكان في المدينة أهمية كبرى خصوصا مع تطور ونمو المدينة، كتصميم الشوارع وانفصال مقرات العمل عن السكن، والتنظيم الوظيفي للماء والإنارة والغاز.⁽¹⁷⁾

⁽¹³⁾ Jean –Marc Stébé/ Hervé Marchal :La sociologie urbaine , PUF ,Paris ,2007,p.09

⁽¹⁴⁾ Cultures urbaines –site internet :fr.wikipedia.org/wiki/cultures_urbaines.le 12/04/2012.

⁽¹⁵⁾ الفضيل العيرج :الثقافة الحضرية ومشاكل الاندماج السوسيو ثقافي ،ص34.

⁽¹⁶⁾ المرجع نفسه ،ص 35 .

⁽¹⁷⁾ المرجع نفسه ،ص 37 .

يركز هذا المقياس على عنصرين مهمين في حياة المجتمعات الإنسانية وهما الزمان والمكان ، بما لهما من دلالات رمزية في حياة الشعوب.

-مقياس المهنة :

يستند علماء الاجتماع على مقياس المهنة للتمييز بين ما هو حضري وما هو قروي ، فالمجتمع القروي هو الذي يشتغل غالبية سكانه بالزراعة ، بينما يشتغل السكان الحضريون في الصناعة والتجارة والخدمات .⁽¹⁸⁾ لذلك نجد في المجتمع الحضري المؤسسات بمختلف أشكالها (إنتاجية وتجارية وخدمائية وادارية وغيرها) تختلف عن بعضها البعض طبقا لطبيعة لوظائفها الداخلية ونسق الاتصال و نوعية المنتج والمهن التي تمارس داخلها.

- مقياس المؤسسات :

يعتقد كثير من الباحثين بان التحضر عملية معقدة لا يمكن اختزالها في مؤشرات كمية ، بل يجب الاهتمام بالإنسان كمنتج حضاري ، ولهذا تم الاهتمام بالمؤسسات التي تميز مجتمعا ما عن مجتمع آخر .⁽¹⁹⁾ وقد ظهر الكثير من علماء اجتماع المنظمات الذين اهتموا كبيرا للمؤسسات أمثال Michel و Alain Touraine و Crozier في فرنسا . كما ظهر لأول مرة في الولايات المتحدة الأمريكية مصطلح جديد وهو "ثقافة المؤسسة " لمواجهة المنافسة اليابانية . وكان الهدف من ذلك هو الاهتمام بمكانة العمال كعنصر أساسي في العملية الإنتاجية⁽²⁰⁾.

-اللاتجانس الاجتماعي :

يؤكد لويس فيرت على خاصية أساسية تميز السكان الحضريين وهي اللاتجانس *hétérogénéité* لأنهم من أصول ثقافية مختلفة ، كما أن الحجم والكثافة يلعب دورا مهما في تعميق اللاتجانس بين السكان ، إذ كلما كان العدد كبيرا كلما كانت الاختلافات بين الناس كبيرة . فالمدينة هي المكان الذي تختلط فيها الأجناس والثقافات المتغايرة ، وهذا ما يشجع على الفروق الفردية للنجاح.⁽²¹⁾

4) التغير الثقافي :

يعتبر التغير الثقافي عملية اضطرارية ومستمرة للتحويل أو التعديلات التي تطرأ على انساق العلاقات الاجتماعية.

فالتغير يشمل جميع المجتمعات : الصغيرة منها والكبيرة ، المنعزلة منها والمنفتحة . وقد تكون التجهيزات التكنولوجية لهذه المجتمعات بسيطة غاية في البساطة ، وقد يتسم هذا المجتمع بولاء وتمسك شديدين لطريقته في

⁽¹⁸⁾ المرجع نفسه ، ص 38 .

⁽¹⁹⁾ المرجع نفسه ، ص 39 .

⁽²⁰⁾ Denys Cuche : Notion de culture dans les sciences sociales , p.100.

⁽²¹⁾ الفضيل العبرج : الثقافة الحضرية ومشاكل الاندماج السوسيو ثقافي ، ص 42.

الحياة . وعلى الرغم من ذلك ، فانه يتعرض للتغير جيلا بعد جيل ، وما ذلك إلا لان أعضائه دائبون على البحث عن أفكار جديدة يتبنونها ، أو مبادئ جديدة ينحازون إليها ، أو أساليب جديدة يطبقونها . فما من ثقافة حية تظل ساكنة أو مجمدة . (22)

كما يشير التغير الثقافي الى التغيرات الملموسة المادية وغير المادية للثقافة ، سواء كانت هذه التغيرات من خلال إضافة أو حذف أو تعديل في السمات الثقافية أو مركب الثقافة . وتعدد مصادر التغير الثقافي التي من أهمها الاحتكاك بالثقافات الأخرى ، الاختراعات ، أو التوافقات الداخلية للثقافة . (23)

هذا وتستجيب عناصر أية ثقافة ، أو تتأثر بعوامل التغير الثقافي بطرق مختلفة ومتنوعة ، فمن العناصر ما يستمر في أداء وظائفه بكفاءة دون تغير ، ومنها ما قد يفقد ملاءمته للنسق الثقافي العام . (24)

4-1 عوامل التغير الثقافي :

من خلال اهتمام علماء الاجتماع والانثروبولوجيا بدراسة التغير الثقافي ومعرفة مصادره ، حظيت عملية التراكم الثقافي *Accumulation culturelle* وكيفية حدوثها باهتمام خاص . إذ افترضوا أن العملية تتم عن طريق عوامل داخلية *Facteurs endogènes* كالاكتشافات والاختراع والتجديد ، وعوامل خارجية *Facteurs exogènes* كالانتشار الثقافي والاستعارة ، ولا تحدث العوامل الخارجية إلا من خلال التواصل الثقافي أي الثقافة أو الثقافات .

4-1-1 الاكتشافات :

يعبر عن الاكتشافات *Découvertes* بمحصلة الجهد المشترك في الإعلان عن جوانب من الحقيقة القائمة بالفعل . ويعتبر الاكتشاف إضافة جديدة لمخزون المعرفة الحية للبشرية عبر تاريخها الطويل الممتد . (25)

4-1-2 الاختراع :

يرى علماء الاجتماع ان الاختراع *Invention* لا يقتصر على الجانب المادي للثقافة بل يتضمن بالضرورة الجانب غير المادي . ويرى وليم اوجبرن ان الاختراع مفتاح التغير الثقافي ، وان الثقافة ككل وليدة الاختراع . ويعرف ميرل *Merrill* الاختراع بانه توليف جديد لسمتين ثقافيتين أو أكثر مع استخدامهما في زيادة محصلة المعرفة الموجودة بالفعل . (26)

(22) رالف لنتون : الانثروبولوجيا وأزمة العالم الحديث ، ترجمة عبد الملك الشايف ، المكتبة العصرية ، صيدا بيروت ن 1967 ، ص 253 .

(23) احمد زايد / اعتماد علام : التغير الاجتماعي ، مكتبة الانجلو المصرية ، مصر ، 2006 ، ص 141 .

(24) حسن عبد الحميد احمد رشوان : دراسة في علم الاجتماع الثقافي ، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ، 2006 ، ص 111 .

(25) احمد زايد / اعتماد علام ك التغير الاجتماعي ، ص 142 .

(26) المرجع نفسه ، ص 143 .

4-1-3 الانتشار :

يعتبر الانتشار Diffusion من العوامل الرئيسية في انتقال العناصر الثقافية أفقياً عبر المكان او عبر المساحات الثقافية كما سماها العالم الانثروبولوجي الامريكى ك. ويسلر. وهو يشير للعمليات التي تنتج تماثلاً ثقافياً بين مجتمعات متباينة. كما ان معظم التغيرات الثقافية التي تحدث في جميع المجتمعات الانسانية المعروفة ، تتطور من خلال الانتشار. وتتم عملية الانتشار ليس بين مجتمع واخر فقط ، بل تحدث داخل المجتمع الواحد بانتشار الخصائص الثقافية من جماعة لاخرى. (27)

4-1-4 المثاقفة :

يشير هذا المفهوم، حسب العلماء الانثروبولوجيين الأمريكيين Robert Redfield و Ralph Linton و Melville Herskovits ، في مذكرة دراسة المثاقفة Mémorandum pour l'étude de l'acculturation ، إلى أنها "مجموعة الظواهر الناتجة عن الاتصال المستمر والدائم ما بين مجموعة من الأفراد ذوي ثقافات مختلفة ، مما يؤدي إلى تغيرات في النماذج الثقافية الأصلية لإحدى المجموعتين أو الاثنتين معا." فحسب هذه المذكرة ، يجب التفريق ما بين المثاقفة و "الانتشار الثقافي" ، الذي يعتبر احد مظاهر المثاقفة . (28)

تعتبر المثاقفة احد العوامل الأساسية التي تسهم في عملية التغير الثقافي . فإذا كان الانتشار هو دراسة الانتقال الثقافي المنجز ، فان المثاقفة هي دراسة الانتقال الثقافي الساري المفعول . (29)

مبدأ إعادة التفسير : le principe de réinterprétation :

هذا مبدأ أساسي في نظرية المثاقفة أو الثقاف. انه يعني أن "العملية التي ترجع المعاني القديمة إلى عناصر جديدة أو من خلال القيم الجديدة التي تغير المعنى الثقافي للأشكال القديمة". وقد أشار ف. بواز F.Boas إلى ظاهرة إعادة التفسير ، مبينا انه عند انتشار أي عنصر ثقافي ، فانه يتم إعادة تشكيله حسب الوسط الذي استقبله، مما يسهم - حسب هذا العالم الانثروبولوجي الأمريكي - في إثراء التنوع الثقافي. (30)

لذلك ، فان عملية التواصل الثقافي والمثاقفة سمة من السمات الرئيسية للعنصر البشري ، شريطة أن تكون متسمة بالتكامل والترابط بعيدا عن الهيمنة الثقافية ، وحتى داخل المجتمع نفسه يجب أن يسود نفس المبدأ فيما يتعلق بالثقافات الفرعية التي تشكل المناطق المختلفة للمجتمع.

إلى جانب ذلك فان الثقافة التي تميز المجال الحضري للمدني تتأثر بعملية التغير نتيجة للسمات والعناصر المستعارة والوافدة إليها من مختلف المناطق أو من الخارج بواسطة تكنولوجيا الاتصال ووسائل الإعلام ، والتي

(27) المرجع نفسه ، ص 143.

(28) Denys Cuche : Notion de culture dans les sciences sociales , p.54.

(29) Marie Odile Géraud /Olivier Leservoisier /Richard Pottier :Les notions clés de l'ethnologie ,3eme ed.,Armand Colin ,Paris ,2007, p.109.

(30) Ibid , p.111

تركت بصماتها على مختلف سلوكيات الأفراد، مما أدى إلى خلق أشكال جديدة من أساليب التعبير وأنماط الاستهلاك ، متجلية في بعض الممارسات مثل الموسيقى والمودة والكتابات الجدارية خاصة لدى فئة الشباب للتعبير عن مشاعرهم وأحاسيسهم تجاه تأثرهم بمكونات محيطهم الاجتماعي والثقافي.

(5) الخاتمة :

نستنتج من ذلك كله أن كل المجتمعات الإنسانية من خلال السيرورة التاريخية التي مرت بها وكذا التحولات في شتى المجالات ، قد عرفت عملية التغيير الاجتماعي والثقافي إن على مستوى البنية التحتية أم الفوقية ، وان كانت بدرجات مختلفة ومتفاوتة بفعل العوامل الداخلية والخارجية ، و التي لامناص من تجنبها ، خاصة مع السير الجارف للعوامة ، المفروضة على كل مجتمعات العالم، وبالخصوص مجتمعات العالم الثالث ومنها الجزائر. بحيث تمكنت هذه المجتمعات من إيجاد آليات دفاعية للتكيف والتأقلم معها ، عن طريق مسايرة العصرنة والحوار الثقافي مع الغرب وإتباع أساليب حديثة في أنماط الحياة ، وفي الوقت ذاته محاولة الحفاظ على هويتها وخصوصيتها الثقافية، التي كانت ولا زالت تطبعها وتميزها ، وذلك بغرض تجنب حدوث انسلاخ واستلاب ثقافيين تكون له آثار سلبية على مستوى السلوكيات والممارسات اليومية التي يقوم أفراد المجتمع بمختلف مستوياتهم وشرائحهم الاجتماعية.

